مدخل عام إلى علم السكان ونشأته

إن دور السكان وقضاياه مهم جدا في جوانب حياتنا المختلفة فحياة الفرد تقتضي المرور بمحطات حياتية انطلاقا من الولادة و تنتهي حتما بالوفاة مرورا بالزواج الهجرة، والتغيرات المختلفة كالتعليم والسكن والصحة والترفيه والعمل الخ.

إن دراسة موضوع السكان بأهمية بالغة فهو يجبرنا على الضرورة لدراسة الميادين والمسائل المختلفة والمتباينة المتعلقة بالسكان والمرتبطة بها وتعد ذات أهمية واضحة من النواحي الاجتماعية، والاقتصادية، والمعيشية والسياسية والصحية وحتى الثقافية وغيرها من النواحي التي تهم المجتمع يعيشه اليوم معظم سكان العالم باعتباره المؤشر الأساسي لمعرفة حاجيات المجتمع المادية والمعنوية كالصحة والتعليم، والدور الثقافية والرياضية وغيرها من الحاجيات التي لا يمكن الاستغناء عنها ، بالنظر إلى دورها الأساسي والهام في حياة السكان اليومية، أمّا من الوجهة المعيشية الاقتصادية فإننا نتجه حتما نحو الدراسات السكانية لها دورها أيضا في معرفة عدد السكان النشطين وغير النشطين، وحركة السكان وتوزيع القوى العاملة وتباينهم على مختلف النشاطات والحرف والأعمال العامة كالزراعة والصناعة والتجارة ومختلف القطاعات الخدماتية من أجل معرفة مدى التوازن والتكامل وحتى الإشباع من هذه النشاطات والتوجهات

إن الهدف من دراسة موضوع الديموغرافيا علم السكان أو جغرافية السكان هناك عدة أسئلة ترد في هذا الصدد، ومنها لماذا ندرس السكان وهل هناك علاقة بين السكان والأرض التي نعيش عليها أو لماذا نادت بعض الأصوات لوقف الانفجار السكاني أو عملت بعضها لتشجيع النمو السكاني أو وقف الهجرة أو تشجيعها أحيانا ولماذا تعقد المؤتمرات المتعلقة بالسكان وبالأرض ولماذا تسخر الحكومات سياسات وبرامج سكانية.

1-ماهية علم السكان:

مصطلح (Démographie) يطلق الدراسة العلمية للسكان، والكلمة مكونة من (Démos) الناس، السكان، البشر، و (Graphie) الرسم أو الكتابة، وصف، دراسة، وتعنى الكتابة عن الناس، أو دراسة البشر، أو وصف للسكان وتطلق الآن على علم السكان .

إذ تعني دراسة البشر، أو وصف السكان أو الكتابة عن الناس وذلك من انطلاقا من حجمهم ونموهم وحركتهم ، وخصوبتهم، ومعدل المواليد والوفيات، وأسباب زيادتهم أو نقصهم، وتوزيعهم الجغرافي ، أو في منطقة محددة كالحضر والريف، ودرجة كثافتهم وتمركزهم ، وكذلك تركيبتهم النوعية ك السن(العمر) والنوع (الجنس)، وعمليات حركتهم كالهجرة بأنواعها المختلفة.

2- مجال الدراسات السكانية:

تركز الدراسات السكانية عامة بثلاث جوانب أساسية هي:

أ- حجم السكان وما ينجم عليه من تغير، وأثر هذه التغيرات، وما يعنيه من ناحية حالة ووضعية السكان عامة.

ب- توزيع السكان، وما ينجم على هذا التوزيع من تغير، وأثر هذا التغير على السكان.

ت- صفات السكان ومدى اختلاف هذه الصفات وتباينها بين مجتمع وآخر، وأثر هذه الصفات والتغيرات على السكان.

3- تطور علم السكان ونشاته:

إذا كان من النادر أن يتمكن المؤرخون من تحديد تاريخ بداية أي علم معين فإنّ الدراسات العلمية للسكان تبدو على خلاف ذلك إذ من السهل تتبع نشأتها بوضوح إلى ما قبل ثلاث قرون تقريبا ، وقد حظيت هذه الدراسة اهتمام كبير من مختلف العلوم المتخصصة في

الدراسات الإنسانية حيث تجري دراسة هذا الموضوع في اللغات الأوروبية تحت عنوان الديموغرافيا وا تعني دراسة السكان من حيث النمو والتركيب والحجم والحركة .

وقد ركز عدد من العلماء لدراسة هذا الموضوع سواء كهواة أو كاكاديميين كان أولهم جيوفاني بوتيرو من (1533–1617) ولقب بأب الديموغرافيا ، ثم تلاه الأستاذ جون غرانت (1620– 1674) والذي يعتبر أول من نشر جداول الحياة البدائية سنة 1662 م ، لتكون حدثا حقيقيا في ميدان وتاريخ علم السكان ، ممّا دفعه لهذا الموضوع أنّه جلس ذات يوم أمام المدفأة يتأمل في قوائم الموتى الأسبوعية في بريطانيا، فكانت له فكرة أنّ هذه القوائم التي تعد وتنشر منذ عدة قرون يمكن إخضاعها للتحليل العلمي . وبالتالي تحولت تلك الدراسة لقوائم الوفيات والمواليد، والزيجات كدراسة علمية أطلق عليها تأملات طبيعية وسياسية مستخلصة من تلك القوائم.

وقد استفاد الأثرياء الإنجليز من دراستها لمعرفة متى يكون من المناسب ترك مدينة لندن إلى الريف الإنجليزي حيث الهواء الطلق، والبيئة النظيفة لاستقرار الإنسان، ثم جاء جون بيتر سوسملسش) و دي مونتيرون وغيرهم في دراسة هذا الموضوع .وحين برزت المعارضة التجارية المنادية بتشجيع الزيادة السكانية خاصة خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر ميلادي، إلا انّ هذا الأمر لم يمنع العالم وليام جودوين والفيلسوف الاجتماعي الفرنسي ا دي. كوندورسي الذين قاما بنشر كتابيهما في وقت واحد تقريبا عام 1793 م.

وتتلخص فكرة الباحث كوندورسي في أنّ التاريخ يفصح عن ترتيب طبيعي في الظواهر الاجتماعية للوصول بالإنسان إلى صفة الكمال، وفضل تقديم النوع البشري في عشر فترات. تمتد العاشرة منها بعد الثورة الفرنسية إلى أن يصل البشر إلى درجة الكمال، وقد تنبأ أنّ تلك الفترة من الزمان سوف تتلاشى العداوات بين الشعوب والقوميات وبالتالي: سوف يزول سوء التوزيع للثروات وعدم المساواة بين الجنسين وعدم تكافؤ الفرص في التربية وأنّ القانون وسائر النظم الأخرى تتجه دائما إلى جعل الفرد ينسجم مع المصالح المشتركة في المجتمع.

وأنّ إنتاج الأرض سوف يزيد باستمرار وأنّ الطعام سوف يكثر، وأنّ المرض سوف يزول، وأن قدرات الإنسان سوف تصل إلى الكمال، وانّ حياة الإنسان سوف تطول حتى تكاد لا تصل إلى نهاية .

أمّا الباحث الإنجليزي جودوين فقد تنبأ في كتابه بعصر ذهبي لا شك في قدومه ، وأنّ في ذلك العصر سوف يصل الإنسان إلى مرتبة الكمال ، كما أعلن أنّ الإنسان بطبيعته لا يميل إلى الشر ، وانّ بالتربية السليمة والعدالة السياسية وبالبحث الهادئ الحر، وإزالة كل القيود التي يمكن إزالتها سوف يتمتع الإنسان بالحرية الكاملة في عمله، وبالتالي يصل البشر حتما إلى حالة من الكمال، وعندئذ لن تكون هناك حاجة إلى إرادة قضائية أو حكومية تقيم العدل بين الناس لأنّ العدل سوف يعم ،و يشد كل إنسان بحماس شديد خير للجميع.

لقد أرجع جودوين مشكلات الإنسان إلى المؤسسات السياسية، والاجتماعية التي كانت سائدة حين ذلك، و نادى للإصلاح الاجتماعي في ظل المشاكل التي تواجهه منها المجتمع.

كما كان يعتقد بالعلم والتقدم العلمي الأمر الذي جعله يتفاءل أكثر في مضاعفة إنتاج الغذاء عدة مرات وبالتالي سوف يكفي للاحتياجات السكانية المتزايدة، وهكذا كانت آفاق هذين الباحثين في عصر انتشر فيه الفقر والبؤس بين البشر بذلك وربما كان سينتهي عصر التفاؤل الذي تميز به القرن الثامن عشر على هذا الحال بهذين الكتابين، ولو لم ينشر العالم توماس مالتوس مقالته المشهورة عن مبدأ السكان سنة 1798 ، وأدخل بذلك آراء جديدة تختلف حتى وان كانت تشاومية كليا عن كل من جودوين ودي كوندورسيه.

ولا يضاح هذا المبدأ العام في مسألة السكان من خلال المقال الذي طرحه توماس روبرت مالتوس . فهنا يكون علم السكان قد تطور وأصبح ونضج كفرع علمي من فروع العلوم الإنسانية لأنّه يمثل حصيلة تجميع تفصيلي وتراكمي ودقيق للإحصاءات المتاحة حينذاك ، حيث قام بدراستها وتحليلها وتوصل للنتائج المترتبة عليها.

وقد لاقت هذه المقالة اهتماما شديدا من قبل معاصريه ومازالت تعتبر واحدة من الأعمال التي تدرس في الجامعات العالمية ليومنا هذا، وبالرغم من وجود باحثين مهتمين بدراسة

السكان قبل القرن التاسع عشر ، إلا أنّ مالتوس كان أول من إمتهن الديموغرافيا وتخصص فيها، مع أنّ له اهتمامات أخرى غيرها تتمثل في الاقتصاد السياسي والأخلاق المسيحية ، وإذا أنسبنا تسمية الباحث جون جراونت بأب الديموغرافيا ،فإنّ مالتوس بحق هو أول محترف فيها. وفي منتصف القرن التاسع عشر (القرن 19ميلادي) وبالضبط 1948 تبنى الباحث جون ستيوارت ميل (J.S.Mill) عرض قضية مالتوس في السكان للمرة الثانية ودعمها بقانون الغلة التناقصية .

وقد أظهر جون ستيوارت ميل حماسا لهذه النظرية العامة في السكان وكان يعتقد أنّ قانون الغلة المناقصة يمثل أكثر القضايا أهمية في تطور الزراعة، وبعد زيادة العمل في تحقيق الإنتاج المطلوب فإنّ الإنتاج سوف يتناقص ولا يزداد بدرجة مساوية بالجهد المبذول، وإذ لم يتضاعف العمل فإنّه لا يؤدي إلى مضاعفة الإنتاج.

كما أشار ستيوارت ميل علاوة على ما سبق إلاّ أنّه مادامت موارد الصناعة تستخرج من الأرض أيضا فإنّ قانون الغلة المتناقصة لا بد أن يدرج في النهاية على الصناعة، أيضا كلما زاد عدد السكان فإنّ الإنتاج الذي يمكن أن يحقق في النهاية يكون نتيجة بزيادة نسبية في العمل وينجم على ذلك ثلاثة أمور وهي :

- إما أنّ الناس يبذلون جهدا أكبر.
- أو يأكلون كميات أقل.
- أو يحصلون على غذائهم المعتاد بتضحيات جزء من كمالياتهم العادية الأخرى.

كما يبين أن مساوئ كثرة السكان الزائدة عن الحد لا تعزى (لا ترجع) أساسا إلى التوزيع غير عادل للثروة فحسب، كما أنّها ليست نتيجة لذلك بل قال من العبث أن كل الأفواه (الأشخاص)الناجمة عن زيادة السكان ترافقها أيدي منتجة ، فالأفواه الجديدة تحتاج للغذاء كالأفواه القديمة (كبار السن) .

ولكن الأيدي لا تنتج الكمية نفسها كما أنّه وضح لو وزّع إنتاج الأرض بالتساوي على كل السكان فسوف يحضى كل فرد بما يكفيه ويجعله في رفاهية العيش، ولكن بما انّ السكان سوف يتضاعف عددهم خلال خمس وعشرون عام سوف يحين الوقت بسرعة بحيث لا يكون فيه لأي شخص غذاء أكثر من الضروريات فقط، وبعد ذلك سوف يتعذر على الفرد أن يجد كفايته منها إمّا الزيادة الأخرى للسكان بعد ذلك سوف يضبطها الموت.

كما أوضح هذا الباحث أنّه من الممكن تأجيل فاعلية الغلة المتناقصة بالتحسينات التي مكنت الإنسان في القرن الماضي ، مع إدخالها على عمليات الإنتاج مثل الأسمدة، الماكنات والآلات المستخدمة من أجل الإنتاج، والمكافحة المتكاملة وتطوير وسائل الري.

واستنباط سلالات نباتية وحيوانية (عملية التهجين) تتفق مع الظروف الطبيعية، والبشرية لزيادة الإنتاج بشكل محسوس الخ....

وتلاه الباحث الباحث الفرنسي جيلارد والذي يعتبر أول من استخدم هذا المصطلح ديموغرافيا في مؤلّفه بعنوان مبادئ الإحصاء البشري .

ثم جاء بعده ويلكوكس 1940 . بمعالجة التباين أو التجانس، في دلالة هذا المصطلح لدى كثير من الباحثين في مؤلّفه بعنوان دراسات في الديموغرافيا الأمريكية.

قائمة المراجع

1- حسن الساعاتي،عبد الحميد لطفي ، **دراسات في علم السكان** ،دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت لبنان، سنة 1981.

2- علي فوزي عبد المقصود وآخرون، **التربية السكانية : مفهومها – مشكلاتها- سياستها**، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية مصر،سنة 2013.

3- مصطفى خلف عبد الجواد ، **علم اجتماع السكان** ، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة ،عمان ، الأردن ط02، سنة 2013.

4- إسماعيل محمد بن قانة ، **الإحصاء الوصفي والحيوي :دروس وتطبيقات** ،دار أسامة للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن، سنة 2011.